

استراتيجية النقد الثقافي في مقارنة النص الأدبي

Cultural Criticism Strategy in Approaching Literary Text

عواج حليمة¹

جامعة الحاج لخضر باتنة،

aouadjhalima@gmail.com,

مبرك حسين

hocine.mebrak

hocine.mebrak@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2020/11/06

تاريخ القبول: 2020/09/26

تاريخ الاستلام: 2020/09/05

ملخص:

يعتبر النقد الثقافي نشاطا نقديا متجددا، وليس مجالا معرفيا مستقلا قائما بذاته فالناقد الذي يمارس هذا اللون من النقد، إنما يطبق نظريات ومفاهيم ومقولات على صور الإبداع والفن والثقافة الشعبية ومظاهر الحياة اليومية، ويعنى بنظرية الأدب والجمال والتفكير الفلسفي والأدب الشعبي، كما يفد من علم العلامات والتحليل النفسي والنظريات السوسولوجية والانثروبولوجية، والوسائط الإعلامية المختلفة.

كلمات مفتاحية: النقد الثقافي، الأنساق المضمر، النص.

Abstract:

Cultural criticism is considered a renewed critical activity, and it is not an independent field of knowledge that stands alone. The critic who practices this type of criticism applies theories, concepts and sayings to images of creativity, art, popular culture, and aspects of daily life, and is concerned with the theory of literature, beauty, philosophical thinking and popular literature. Science of signs, psychoanalysis, sociological and anthropological theories, and the various media.

Keywords: cultural criticism, implied formats, text.

¹ المؤلف المرسل : حليمة عواج، الإيميل: aouadjhalima@gmail.com

ما من شك أن الخطاب النقدي هو خطاب متحول، متعدد في نظرياته ومناهجه، ولعل وضعية التجدد والتعدد هي التي حملته التغير والتطور بغية الوصول إلى ما يسمى بالفعالية المعرفية والمنهجية التي من شأنها ضبط الأثر الأدبي وإضفاء صبغة من الأدبية والفنية عليه، تحول دون تمييعه وطمس جوهره وماهيته، وهي الطوابع والخصوصيات التي جعلته خطابا له مقاربات تاريخية ولغوية وأيديولوجية وتأويلية متنوعة، وضمن هذا التعدد والتنوع، برز خطاب نقدي استطاع أن يؤسس تراكما معرفيا ومنهجيا، أهله ليكون خطابا قويا فارضا نفسه داخل الحياة الثقافية، وأتاح له إنتاج معرفة بالنص الأدبي وقراءته ومقارنته وتفكيك عناصره ومكوناته، بما ينسجم مع السياق الثقافي، ويرتبط بالزمان والمكان والعصر والقضايا والإشكالات السوسيو ثقافية، وصار النص الأدبي في ظله دليلا على وظيفة الثقافة والمثقف، ومكن من تلاحم النص الأدبي مع الخلفية الثقافية، الأمر الذي جعل منه صورة لخطاب آخر مغاير، هو الخطاب الثقافي العام، وانعكس ذلك على الناقد الذي بات في ظل هذا اللون يسائل الإبداع في إطار مرجعي ومعرفي متماسك واضح المعالم، يراعي خصوصية النص ووظيفته وطبيعة علاقته المعرفية والتاريخية، كما حاول إيجاد قراءة نقدية بعيدة عن الانطباعية والسجالية، ترتاد النص بعمق معرفي يمكنها من الإنتاجية والخصوصية والفعالية، ومن ثم كانت حادثة الخطاب النقدي الثقافي قد أوجدت معركة حامية الوطيس جددت علاقة الخطاب النقدي بالبعد الثقافي الاجتماعي، مستفيدا من عامل المثاقفة، حيث اطلع النقاد على مختلف المناهج النقدية الحديثة وأفادوا منها أيما إفادة، مستشعرين في أنفسهم ضرورة الأخذ من النماذج التي احتكوا بها، فبات خطاب هذا اللون من النقد خطاب توصيف وتشخيص وتأسيس، يرتبط وجوده بوجود خطاب آخر مواز، بوصفه قولاً على قول، يراعي النسق المنهجي والمعرفي، مثلما يحرص على السياق الاجتماعي والثقافي المحيط بالخطاب والمنتج له، كما يراعي طبيعة الموضوع، مهما كان جنسه الأدبي، شعر، قصة، مسرح، حيث يتناوله بالوصف أو التفسير أو التأويل، إنه آلية لمقاربة الإبداع وقراءته، من خلال مواكبته ومحاورته والتعايش معه، لإبراز ما ينطوي عليه من قيم ومواقف، ومحاولة إعادة إنتاج نص آخر مخالف لكل ما هو سائد وذائع وشائع ومكرور ومتداول، من خلال نقد القوالب الجامدة والجاهزة، وضع حركية جديدة، ودماء جديدة، من شأنها وصل المثقف بالحياة وسيرورة المجتمع، وفي هذا السياق اتخذ النقد الثقافي موقعا أتاح له الانفتاح على مختلف النظريات والمعارف والمقولات والثقافات، وتطويع مفاهيمها ومصطلحاتها دون التشبث بسياقاتها الأصلية، والعمل على تأويل النص الأدبي على ضوء علاقته بالواقع وتقصي شروطه الاجتماعية والتاريخية والثقافية.

ورغم الخصوصية التي يتمتع بها هذا اللون من الممارسة النقدية، إلا أنه لا يستغني أبداً عن الخطابات الأخرى كما ذكرنا، من خلال مدقناته وفتح مسالكه الأمر الذي أتاح له استغلال ما خلصت

إليه الجمعيات والصحافة والسياسة من مقولات ونظريات وتصورات وطروحات وإعادة صياغتها وتطويرها وفق استراتيجية محكمة جديدة في مقارنة النصوص الأدبية وفهمها وتأويلها، وتجاوز حالة فوضى المناهج وصدامها، ذلك أن النص الأدبي أُمسى في حاجة إلى محاور، ومساءلة ومعايشة، أكثر مما هو في حاجة إلى البحث عن قيمه الفنية ومقوماته الجمالية " باستنطاق بداياته أو الحفر في طبقاته أو تفكيك أبنيته، أو كشف آلياته وإجراءاته، أو فضح مطوياته ومستنداته، أو تعرية ألعايبه في إخفاء ذاته وسلطته." (حرب، 2000، ص21)، ذلك أن النص لم يعد بنية مغلقة، مستعصية على الفهم والاستيعاب والتحليل، ولكنه فضاء منفتح على العالم والعصر والكون، قابل للقراءة والتأويل، وإن كانت له طوابعه وخواصه وآلياته، بل إن "النص الأدبي بقدر ما هو خطاب له أدوات وإجراءاته ومميزاته البنيوية التي تميزه عن غيره من الخطابات...هو نص منفتح على غيره من النصوص وعلى الإنسان والتاريخ والمجتمع" (يقطين، 2002، ص64).

ولعل سعة هذا النقد وشموليته وامتداده هي التي مكنته من استيعاب الحاصلات والخلاصات التي انتهى إليها علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة والانثروبولوجيا والبلاغة والإعلام، واستطاع هضمها وإعادة صياغتها واستثمارها في التصدي للنص الأدبي، ومعلوم أن خطاب النقد الثقافي إنما جاء كرد فعل على البنيوية التي جعلت النص بنية مغلقة على ذاتها، في حين هو - في ظل النقد الثقافي - بنية مركبة مرتبطة بظاهرة ثقافية ما، يحاول من خلالها الناقد أن يصوغ نظرية محورها علاقة الإنسان بالعالم، من خلال الفن، وهو ما أشار إليه أحد الباحثين، بقوله: "فالنص في نهاية الأمر ليس سوى تعبير يشكل جزءا من عملية اجتماعية معقدة، مما يجعل من الضروري استحضار الملابس الشخصية والاجتماعية واللغوية والأدبية التي كتب فيها النص ما دمنا نريد أن نجري عملية اختبار جاد في نطاق تحليل أدبي مكتمل، ويطلق بعض الدارسين على استخدام هذه العوامل موقعة السياق الثقافي للنص" (فضل، 1998، ص183).

ومن ثم فإن النص الأدبي رغم استقلاله إنما يتشكل في إطار ثقافي وداخل سياق اجتماعي بل هو ترجمة للتحويلات الفكرية والروحية والجمالية السائدة، وليس مجرد تعبير عن نزعة ذاتية، أو أسلوبا فرديا محضا لا يمت بصلة إلى سيروية الحياة ودوامة التغيير والتجدد التي هي عنوان الوجود وناموس الكون. إن النقد الثقافي هو منهج ما بعد حدائي قد أعطى للمتلقي أهمية كبرى وجعل منه قارنا وناقدا ثقافيا، يحلل ويفكك ويؤول النص على مختلف مستوياته وطبقاته بوصفه تعبيراً عن المنتج الذي يستمد مادته من الحياة، فإذا كان البنيويون قد نادوا بموت المؤلف، فإن هذا اللون من النقد يعتد بالمؤلف بوصفه المؤسس الحقيقي للنص، ومن ثم فإن نقد نص وتحليله لا يقتضي أن يملك الدارس أو الناقد ثقافة موسوعية فحسب، ولكنه نقد يتجاوز المفهوم التقليدي للممارسة النقدية، ويحاول التقرب من النص والتحاور والتعايش معه، والاستئناس به، واستيعاب المنهج النفسي واستلهاً المناهج الأخرى كالمناهج الاجتماعية والتاريخية والفني، بل ويحاول استثمار وتوظيف ضروب المعرفة في سياق الدرس الحضاري بشقيه الأكاديمي

والمؤسساتي الجمعي والإبداعي الفردي "إنه ممكنات ومعطيات لا تقنيات وآليات وسلوكيات معرفية نراها مناسبة لعصر انهارت معه حدود الأجناس وبان فيه التداخل المعرفي بين العلوم" (سعد الله، 1996، ص393)، ولا بدع أن هذا النقد راح يفيد من العلوم والنظريات والمقولات وتوظيفها في استنطاق النص وقراءته، ويعمد إلى إسقاطها أحيانا على النص لتفسيره على نحو ما، كما يحاول "تبني نظريات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التطور، ويحمل النص مالا طاقة له بحمله" (القاصد، 2013، ص34)، ولا يعنيه البحث أو التنقيب في الثقافة، بقدر اهتمامه بالبحث في أنساقها المضمرة وتشكلاتها المركبة والمعقدة، ولا يستند إلى الأدوات المنهجية التي يعول عليها النقد الأدبي الذي يبحث في بنية النص وجوانبه البلاغية والجمالية، بل يبحث في الأنساق المضمرة للخطاب، ويتعاطى مع الظاهرة الأدبية كما لو أنها ظاهرة ثقافية تتماس مع القيم الحضارية والسياسية والدينية والسياقات التاريخية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية، بوصفه نموذجا قادرا على الاستجابة الواعية لكل المتغيرات، وإثراء الجوانب الإبداعية والاجتماعية بنماذج فكرية وسلوكية، عكس ما تبناه النقد الأدبي الذي احترق بسبب تركيزه على الجانب الجمالي للخطاب الأدبي، ومن ثم فهو "ليس بمنهج نمطي له حدود معينة، إنما هو نشاط إنساني معرفي يتناول مختلف المنجزات الفكرية والمعرفية والخطابات الحاملة لأنساق تاريخية أو تداولية اجتماعية، بل حتى الخطابات المهملة كالإعلانات..." (سعد الله، 2007، ص56) ويتتبع الأنساق المضمرة المتوارية خلف جماليات الأداء، أو ما يسميه القدامى "الحيل النسقية"، بل ويحرض على هتك فكرة الحدود الأجناسية، ويحطم الأسيجة والحواجز في الواقع الثقافي، وليس عجيبا أن هذا الضرب من النقد يوصف "بالنقد الديمقراطي إنساني عولي" (سعد الله، 2007، ص57)، للإشارة فإن هذا النقد قد ارتبط بما بعد الحداثة، واستوى على سوقه بفضل الدراسات الثقافية التي لكان لها دور بارز في كسر مركزية النص، وفي الوقت ذاته لم تصرف الاهتمام بالنص بوصفه منتجا، له بواعث اجتماعية وفنية، بل "صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما يكشف عنه من أنظمة ثقافية، فالنص ليس هو الغاية القصوى للدراسات الثقافية، وإنما غايتها المبدئية الأنظمة في فعلها الثقافي في أي تموضع، بما في ذلك تموضعها النصوي" (الخليل، 2018، ص9).

ولعل أبرز وجوه تموضعه أنه خطاب منفتح، يتسم بالشمولية وتوظيف كل أدوات ووسائل المعرفة لاستنطاق النصوص وتأويلها، كما "يستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف للناقد الأدبي أن يخوض في العادي والمبتذل والوضع اليومي والسوقي بعدما تمهد كثيرا في قراءة النصوص المنتقاة والمختبة التي يتناقلها نقاد الأدب ودارسوه" (الخليل، 2018، ص9)، ومن ثم فهو يسلط الضوء على النصوص لاستبطانها واستجلاء مستويات الانقلاب والتحول والتغيير الذي يعتور البنى، وكذا قراءة الأشكال النقدية الثقافية، وتحليل الخلفيات الاجتماعية والإيديولوجية للظواهر "والأحداث المجتمعية والمؤسسات ومهاوينا ومهادها وتفرعاتها الإيديولوجية"

(الخليل، 2018، ص10)، وهكذا يكون الدارس في مجال الدراسات الثقافية أكثر وعياً، الأمر الذي يتيح له أن يتجاوز الحدود والمقاييس المتداولة بين نقاد الأدب، ومن ثم إمكانية الالتفات إلى التراث القديم واستثماره وإعادة قراءة مادته ومنتنه على أساس ثقافي، يؤدي في نهاية المطاف إلى تصريف الخطاب والقراءة إلى أنساق ونماذج وتصورات جديدة، يتطور في ظلها الذوق العام وتتخلق ذهنيات ومفاهيم جديدة، ومن ثم فلا غنى للناقد عن الثقافة بوصفها عنصراً أساسياً في نهضة الأمم ووعيتها وتطورها، وتفعيل الحركات الخلاقة وتنمية الرصيد الفكري والحضاري، والانفتاح على مختلف الثقافات والحضارات، وتعزيز القيم الإنسانية، واحترام خيارات الشعوب ومذاهبها وأعرافها وعاداتها.

إن النص الأدبي ليس تقريراً مباشراً يرصد الواقع بحذافيره، وليس خطاباً يستهدف إقناع الناس، بقدر ما هو إعادة صياغة لهذا الواقع، وترجمة لهواجس النفس، لذلك أخذ النقد الثقافي على عاتقه مهمة طمس الجانب الجمالي والفني للنص الأدبي في سبيل البحث في مضمرات النص وأنساقه المتوارية خلف القيم والتعابير المتوشحة بالبالغة، ينضاف إلى ذلك أن القيمة الحقيقية للممارسة النقدية في ظل هذا النقد، إنما هي فيما يعتمد عليه ويتبناه في منهجه من تراكم ثقافي، ورفض مقولة الانقطاع، باعتبار أن كل منهج يتغاضى عن هذا التراكم والتحول، هو منهج يقدم مقارنة مشوهة قاصرة، تعبر عن مذهب القارئ لا مذهب النص، فإذا كان "نسق الظلم، قيمة أقرها المجتمع القبلي في الجاهلية واعتد بها، بوصفها موضع اعتزاز ومجد، فإن الانقلاب الحضاري الذي أحدثه الإسلام قابل هذه القيمة بالرفض وأخذت المقولة التراثية القائلة: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" مفهوماً جديداً، وبانت تعني نصرة الظالم من خلال منعه عن ظلمه" (الرياحي، 2005، ص 11).

إنه مشروع استراتيجي يعول على المداخل السياسية والاجتماعية التي تبني على الإيديولوجيا، غير أن النقد مهما كان منهجه ولونه، ينبغي أن يراعي أهمية النص والنسق، باعتباره محاولة لسبر أغوار النص وتفكيك بنيته والتنقيب في طبقاته، ومن ثم غدا في ضوء الرؤية الجديدة التي حملها رواه وثيقة تعكس القيم الإيديولوجية والسياسية السائدة، ونقطة انطلاق لإعادة تصور تلك القيم، وإعادة بنائها" (حفناوي، 2007، ص 47)، بل ويحاول مقارنة النص عن طريق تحليل نسقه ووظيفته، والبحث عن الدلالة الرابضة في أعماقه، والإمسك بمضامينه المتوارية في ثناياه، هذا النص الذي ظل لسنوات مغيباً مستترا عن القارئ والناقد، لاسيما أن هذه الأنساق التي هي محل بحث واهتمام هي عناصر موهلة في أعماق النص، لها إشارات وإيماءات خفية، ومقولات وخطابات تسري في جوفه تحت عناوين مختلفة" ومشروع هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية وأهم هذه الحيل، هي الحيلة الجمالية التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدّها تحكماً فينا" (حفناوي، 2007، ص 50).

إن هذه الجمالية التي يتغنى بها النقد الأدبي عامة، وتتردد مصطلحاتها في كل الأبحاث والدراسات، إن هي إلا قناع أو أداة لتمرير مضمرات ومخبوءات ما وجدت لها منفذاً في الخطابات، ومن ثم فإن هذه

الجمالية "ليست إلا أداة تسويق وتميرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي على التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع" (الغذامي، 2004، ص 30) وتظل هذه البنى والأنساق الثقافية رابضة داخل النصوص الأدبية، في انتظار من ينقب عنها ويكشف عن مكنونها "إنها تبرز كنشاط خطابي دؤوب، يتجسد في الآثار الأدبية والفنية، والأنساق الفلسفية، والإجراءات القانونية والسياسية والنصوص الدينية" (شوقي الزين، 2000، ص 119)، وتشير القراءة النقدية الفاحصة إلى أن كل نص أدبي هو بنية مغلقة لا تبوح بأسرارها ولا تصرح بما تكتنزه في باطنها، ولا تديع ما يعتمل في أعماقها، إلا من خلال ما توحى به أنساقها، وتلمح إليه بنياتها في شكل رمزي مجازي "ومع كل خطاب لغوي هناك مضمر نسقي يتوسل بالمجازية والتعبير المجازي، ليؤسس عبر قيم دلالية غير واضحة المعالم ويحتاج كشفها إلى حفر في أعماق التكوين النسقي للغة، وما تفعله في ذهنية مستخدمها.." (شوقي الزين، 2000، ص 28).

ومن ثم يمكن للناقد أن يتحرر من تلك الأعباء والأثقال والأوزار التي كان يحملها إياه النقد الأدبي، وغدا النقد الثقافي يؤمن بالتعدد والاختلاف، فألغى الحواجز والحدود، وأسقط تلك الأسوار المنيعه التي كانت تحول دون إفادته واستلهاه لمختلف المعارف والعلوم، الأمر الذي أضفى عليه صفة الشمولية وطابع الموسوعية "وامتدت مساحته حتى شملت نظرية الأدب والجمال والنقد والتفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وتفسير نظريات علم العلامات ونظرية التحليل النفسي.. والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجيا، ودراسات التواصل والاتصال ووسائل الإعلام.." (سعد الله، 2007، ص 56).

وتلتقي الاستراتيجية التي يتبناها النقد الثقافي مع مذاهب نقدية كالنقد النسوي والتفكيكية، وهو الأمر الذي أسهم في تطور الوعي بالواقع الثقافي وأنساقه المضمرة تحت عناوين مضللة ومغرضة، قد تكون ذات صبغة دينية أو طابع سياسي أيديولوجي، ومن ثم فالخطابات والأنساق التي يحملها النقد الثقافي تسري وتتحرك بخلاف "مدلول النص ذاتها وعلى نقيض وعي المبدع والقارئ، وهذا فعل نسقي، وليس فعلا نصوبيا، وليست النصوص إلا حوامل تحمل هذه الأنساق، وتمر من تحت أنف الناقد الأدبي دون كشف لها.." (الغذامي، 2004، ص 39)، وبات الناقد يمارس عملية الكشف والتعرية والانتهاك والهدم والبناء، وإبراز قيم ثقافية وأخلاقية، أو رموز سياسية واجتماعية أفلتت من قبضة المساءلة وتملصت من دائرة الضوء، واستقرت في حيز المسلم به، وصار سؤال الثقافة سؤالاً يتميز بالجرأة، ولا يتردد في طرح السؤال الذي ظل مصادرا ومكبوتا حتى تناسته الأجيال وطرحته تحت مسمى "الممنوع والمسكوت عنه، ولم يعد هناك نص أو خطاب خارج النظر والمساءلة والمحاکمة والتقويم "ومتى وضعت القيم الفنية والجمالية والأخلاقية موضع تساؤل في مجتمع ما، فمعنى ذلك أنه مقبل على تحولات تمس وجوده ووجدانه" (يقطين، 2002، ص 50)، وهكذا خلصت جهود النقد الثقافي إلى إيجاد قارئ جديد ومختلف "قارئ يشتغل على النصوص

مسألة واستنطاقاً أو حفراً وتنقيباً، أو تحليلاً وتفكيكاً" (حرب، 2000، ص18)، بل صار يركز اهتمامه خلال قراءة النصوص على استحضار المنسب واستدراج المهمش والمقصى والمغيب في المجتمع، ويحاول إعادة كتابة النص وصياغته وفق رؤية جديدة تتجاوز حدود ما يقرأ، والدخول في جدل وصراع مع كل ما هو ساكن وثابت في الفكر والثقافة لتقدم رؤى ونظريات وتصورات مخالفة في تأويل النصوص ومقاربتها، ليكون "النقد الثقافي طرقاً إجرائية تقترب من العملية لقراءة النصوص على اختلاف توجهاتها وكشف جمالياتها ومعرفة مرجعياتها" (سعد الله، 2007، ص54)، ومثل هذه التصورات والطروحات هي التي يستطيع من خلالها الناقد أن يحلل المركب الثقافي للنص الأدبي وللخطاب، وأن يستكنه البنية الثقافية العميقة التي شكلت بؤرة النص.

إن الثقافة لا يمكن فصلها عن المجتمع الذي أنتجها، لذا فإن النقد الثقافي هو منهج يتناول مشكلات الإنسان وقضايا الحياة ووسائلها، ويسهم في تحديد وتعريف العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو إلى ذلك باب واسع يتسع ليشمل عالم الفن والخيال والأفكار، ويحاول أن يستخدم الفكر والثقافة والتأمل للوصول إلى الحقائق المغيبة والمضمرة في البنى المختلفة، حيث يبدأ بالتذوق ويعتمد على التحليل والتعليل والتفسير، لتصبح الممارسة النقدية ممارسة ثقافية "فإذا كان الشاعر هو خلاصة حضارة، فإن الناقد هو خلاصة الخلاصة لهذه الحضارة.. وكل المذاهب النقدية بنيت على خلفيات معرفية فكرية وفلسفية وجمالية، وكلها تشكل جزءاً من الثقافة فالتسمية أصلاً" النقد الثقافي مضللة ومدعية" (قطوس، 2012، ص196)، ذلك أن المناهج النقدية تمارس فعلاً ثقافياً باعتبار أن النقد هو فعل ثقافي، وقد مارس النقاد في كل الأوقات والأزمان فعلاً ثقافياً، مثل عبد القاهر الجرجاني، والجاحظ، وحازم القرطاجني، ومن ثم يمكن للنقد أن يطور أدواته ويطوع الثقافة لصالحه، فتصبح جزءاً من الفعل الثقافي، ولعلّ الممارسة النقدية على هذا النحو، إنما هي ممارسة ثقافية يحاول من خلالها الناقد أن يذيب ويصهر العناصر الثقافية والإفادتها منها، لذلك فإن "خضوع الثقافة للنقد يبدو طبيعياً في ظل الحديث عن ثقافة النقد وثقافة الناقد، والناقد الثقاف، والناقد المثقف" (قطوس، 2012، ص197).

ويعد النقد الثقافي طورا من أطوار التطور الفكري العربي الذي يحاول تجاوز الحداثة وما بعد الحداثة، بل بات ينظر إليه "بوصفه مظلة واسعة تضم تحتها الاتجاهات النقدية العربية كالتاريخانية الجديدة new historicism والمادية الثقافية cultural materialism وما بعد الكولونيالية والنقد النسوي.." (قطوس، 2012، ص197)، ويتفق منظرو النقد الثقافي على ضرورة التعامل مع النص في إطار ما تنتجه السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة، بل راح ينادي دعائه بالتعددية الثقافية السود والبيض، والنسوية والذكورة، وبند كل ما اصطلاح عليه بالتيار المؤسساتي الرسمي، وهو ما أشار إليه "فنسنت ليتش" في معرض حديثه عن النقد الثقافي بوصفه نقداً يتجاوز البنيوية وما بعدها، ويفتح على كافة أنواع الخطاب، لتوسيع آفاق الخطاب النقدي، وقد وقف "ادوارد سعيد" موقف الوسطية حين نادى بما اصطلاح على ترجمته

"النقد المدني"، وهو نقد يتوسط بين النقد التقليدي والثقافة، عكس ما ذهب إليه نقاد آخرون حين اتخذوه بديلاً عن النقد الأدبي والمؤسساتي، من خلال الانفتاح على النصوص والكتابات التي همشت، قصد إدماجها في المتن الثقافي، ودعا "إدوارد سعيد" إلى مزج البعدين الجمالي والثقافي في بوتقة واحدة، وهي "دعوة سبقت إليها طروحات "دريدا" في مناهضته المتمركز حول الثقافة الغربية، أو المركز حول العقل أو المنطق" (قطوس، 2012، ص198).

إن النقد الثقافي هو مشروع نبت في البيئة العربية ضمن سياقاته التاريخية والسياسية وبواعثه المعرفية، وهذا ما تبناه "الغذامي" فيما أسماه نظرية النقد الثقافي، مدعياً انفصال الشعر العربي عن سياقاته الثقافية والمعرفية، لأن الشعري والجمالي في الشعر العربي غير منفصل عن الفكري والإنساني والحضاري ومنصهر فيه، وأمام زحف مقولات ونظريات النقد الثقافي، تراجع مد النقد الأدبي، ذلك أن النقد الأدبي بمناهجه الوضعية والمعارية لم يعد قادراً على مواكبة ومجاراة روح العصر، بل إنه فقد السيطرة على استيعاب الفعل الثقافي المعاصر وتحولاته المعرفية، وقد تزامن ذلك مع بروز نظريات القراءة والتلقي، ومناهج التحليل وآليات التأويل ومقاربة النصوص وقد أدى هذا التطور للفعل الثقافي إلى حركية التطور النقدي نحو التحليل المعرفي والمؤسساتي في سياق النقد الثقافي "يوصفه أحد فروع النقد النصوي وعلوم اللغة، وحقول الألسنية، ليعنى بنقد أنساق الخطاب وأنظمتها المعرفية" (حرب، 2000، ص138).

لذلك فإن الانفتاح على العلوم الإنسانية والتوسع في المرجعيات والإحالات، إلى جانب بروز التفكيكية والتشريحية، هي المجال الذي نبت فيه النقد الثقافي ونما في سياقه، فإذا كان النقد الأدبي قد وجه قوته وثقله نحو النصوص بغية التمرکز داخلها، فإن النقد الثقافي يوجه اهتمامه نحو الأنساق الحاملة للخطاب الثقافي، من خلال تحليل أنظمتها العلامية والنصوصية باعتبار أن الأول يركز على النصوص، في حين أن الثاني يركز على الأنساق، ومن ثم استطاع النقد الثقافي أن يستوعب التغيرات والتطورات الموازية للتحويلات التي مست البنيات والمقولات والنصوص ومرجعياتها المتعددة.

ولعل تطور هذه الأنساق المعرفية والعلوم الإنسانية، وانحسار الأفق المعرفي لمرجعيات النقد الأدبي، هي من أهم عوامل تراجع النقد الأدبي، وطفو النقد الثقافي، ومما لاشك فيه أن البنى الثقافية باتت تتعرض إلى هزات عنيفة، نجم عنها تغيير في الأدوات والماهيمات والمفاهيم، وهو الأمر الذي حمل القارئ والناقد كليهما على التعايش مع نظام معرفي جديد، فتغير لذلك الخطاب الثقافي في لغته وحواره بين الذات والآخر، غير أن ما يؤخذ على النقد أنه مازال منفصلاً بالأزمات، غير فاعل فيها، ويفتقد أحياناً إلى القدرة على إدارة الإشكالات والقضايا التي يتناولها بوعي، ويبدو أحياناً أخرى غير متحرر من بعض العقد المرضية الكامنة في أبنيته وسياقاته، لذا قد تستغرقه بعض الظواهر دون أن يستوعبها، الأمر الذي ينعكس عليه

سلبا، ويؤدي إلى تشظيه واختلال التوازن بين الذات والواقع.. وعلى كثرة النظريات والمناهج، وتعدد الرؤى والاستراتيجيات، واختلاف التصورات والمقاربات، وأثر ذلك على في خلخلة القيم والمفاهيم والبنى والتجارب، إلا أن الخطاب الثقافي لم ينخرط في فوضى المناهج، وأسهم في تقنين الظاهرة الأدبية وقراءتها قراءة واعية والتأثير في توجيه الأذواق والرأي العام وجهة إيجابية، وبات هذا اللون من النقد مطالبا بأن يمتلك القدرة على الموازنة بين الاستقرار والتغيير والتجديد، من خلال ترتيب أولوياته المعرفية من جديد بصيغة موازنة لإنجازات التغيير السياسي، ومساءلة الظاهرة الثقافية من حيث منطلقاتها وأهدافها وقضاياها واستراتيجيتها.

ولعل الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تضع النقد الثقافي في حراك ثقافي مستمر ودائم، الأمر الذي يتيح له حيابة أدوات القوة والتوازن والإقناع، واستيعاب تغيرات الواقع، والقيام بدور فعال وإيجابي في صناعة الوعي بماهية الظاهرة الأدبية.

وصارت النصوص في نظر النقد الثقافي "ساحة تباينات لا بيانات، مساحة لتفجير المعاني لا حصرها" (إدوارد، 1983، ص 187) ومع مرور الوقت فرضت هذه الخطابات نفسها، وبانت تحاصرها وتؤرقنا وتقلقنا وتمارس علينا ضروبا من الضغط، فامتلكت سلطة من نوع خاص "وكل خطاب يحاول أن يمارس سلطة ما، فهذا جزء أصيل في بنية الخطاب، أي خطاب" (أبو زيد، 2000، ص 6)، وهذه الخطابات والأنساق تمارس دورها في التأثير والضغط والتحريك والتفعيل، وتجري أحيانا ضد "مدلول النصوص ذاتها وعلى نقيض وعي المبدع والقارئ، وهذا فعل نسقي، وليس فعلا نصوصيا، وليست النصوص إلا حوامل تحمل هذه الأنساق وتتمر من تحت أنف الناقد الأدبي دون كشف لها" (الغذامي، 2004، ص 39)، ومن ثم عكف المهتمون بهذا اللون من النقد بقراءة الأنساق ومساءلة النصوص ومحاكمتها "وقد آن الأوان لممارستنا النقدية بأن تتحرك باتجاه نقد الخطاب الإبداعي من بوابة النقد الثقافي لكشف ما يحمله الإبداع من جماليات مسلم بها، ولكن من قبحيات نسقية لم تكن ننتبه لها" (الغذامي، 2004، ص 42)، ومن خلاله يمكن للقارئ والناقد كليهما أن يمارسا دورهما في الكشف والتعرية، وإظهار ما تنطوي عليه النصوص من منظومات ثقافية خرجت من دائرة السؤال واستقرت بدائرة المسلمات، لأن "مركزية تعليمنا تلقينا التلقي وتقديس الجاهز المعطى وتحرم كل محاولة للخروج عن المألوف" (أفاية، 1997، ص 78).

ويعتبر النسق المضمهر محورا أساسيا ومركزيا في النقد الثقافي، ويركز في مقارنته على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح للنصوص، مثلما هي عند "رولان بارت" و "جاك دريدا" و "ميشال فوكو" ولاسيما في مقولة "دريدا" أن لا شيء خارج النص" (حفناوي، 2007، ص 49)، ويعد النقد الثقافي اتجاها نقديا فاعلا في اكتناه النصوص واستنطاقها واستجلاء مكنوناتها وأنساقها، وقراءته للنص هي قراءة تحليلية تستهدف كشف التمثلات الجمالية والشفيريات الثقافية في البنى النصية، وعليه فإن قراءة النص الأدبي قراءة ثقافية تتيح تبين الشيفرات الثقافية، وتحليل البنى وفهم الأحداث وتمثلاتها الاجتماعية، وهو يركز على النسق بوصفه

عنصرًا مركزيًا في الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسة والمجتمع "إذ يتسم النسق من حيث هو نظام بالمخاتلة واستثمار الجمالي والمجازي ليمرر جدلياته ومضممراته التي لا تكشف إلا بالقراءة الفاحصة" (عليما، 2015، ص9)، وهو فعالية متجددة تسير كل شؤون الحياة ونشاطاتها، وتحاول قراءتها قراءة مغيرة للمألوف والمكرور والمتشابه "إنه نشاط فكري يتخذ الثقافة بشموليتها موضوعًا للبحث والتفكير، ويعبر عن مواقف معينة إزاء تطوراتها وسماتها" (عليما، 2015، ص9)، ومن ثم فإن من مهمات هذا النقد أنه يضطلع "باستكشاف الوظائف الإيديولوجية للنصوص في مراحل تاريخية متنوعة، وفي ممارسات ثقافية متباينة" (عليما، 2015، ص9)، ورغم أن إرهابات هذا النقد تعود إلى القرن الثامن عشر، إلا أن "بعض التغيرات الحديثة، لاسيما مع مجيء النصف الثاني من القرن العشرين، أخذت تكسبه سمات محددة على المستويين المعرفي والمنهجي لتفصله بذلك عن غيره من ألوان النقد، وبالقدر الذي استدعى الإشارة إليه مع بداية التسعينات من القرن الماضي بوصفه لونا مستقلا من ألوان البحث" (عليما، 2015، ص10)، وكان اهتمام الدراسات الثقافية منصبا على تحليل الموضوعات الثقافية، باعتبار أن الثقافة بنية أساسية في المجتمعات الإنسانية، وهي شاملة للمعرفة والفن والأخلاق والقوانين والعادات والأعراف والعلاقات الاجتماعية، ومن ثم فإن النقد الثقافي "يهدف إلى تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، مثلما تهدف في الآن نفسه إلى اختبار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل ممارسات ثقافية" (بوردين، 2003، ص5)، وتسعى الدراسات الثقافية في مشروعها النقدي والثقافي إلى أن "تستحضر معاني الوعي التاريخي متضمنًا التاريخ المفاهيمي والنفسي والتشكيل اللساني بوصفها تشكيلات اجتماعية" (بوردين، 2003، ص11).

إن النقد الثقافي يحاول توظيف العناصر الجمالية الاستعارية والمجازية بوصفها تشكيلات أو بني زائفة تخفي وراءها شيفرات لا متناهية من الدلالات والمعاني.. وبما أن النص حادثة ثقافية نسقية فإن أنساقه تكتسب خاصية الانفتاح على فضاءات في الثقافة، لذا فإن القراءة النسقية تحاول قراءة النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية والسياسية والاجتماعية.

قائمة المراجع:

- 1- علي حرب، الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، ط2، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2000.
- 2- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادؤه وإجراءاته، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- 3- محمد سالم سعد الله، منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة: محمد مندور ضمن كتاب: النقد المنهجي عند العرب، القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.

- 4- بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات، ط3، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم، 2012.
- 5- محمد سالم سعد الله، أنسنة النص، مسارات معرفية معاصرة، ط1، عمان، الأردن: عالم الكتاب الحديث، 2007.
- 6- سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، ط3، بيروت: دار الساق، 2018.
- 7- كمال الرياحي، حركة السرد الروائي ومناخاته في استراتيجيات التشكيل، ط1، الأردن: دار مجدلاوي، 2005.
- 8- حفاوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم، 2007.
- 9- عبد الله الغدامي عبد النبي أصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط4، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2004.
- 10- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
- 11- سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة والسلطة، نحو ممارسة أدبية جديدة، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2002.
- 12- إدوارد سعيد، العالم، النص، الناقد، مجلة فصول، العدد 14، 1983.
- 13- نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، ط5، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
- 14- محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، عمان، الأردن: إفريقيا الشرق، 1997.
- 15- يوسف محمود عليمات، النقد النسقي، ط1، عمان، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، 2015.
- 16- ساردار، زيو دين، فان لون، بوردين، الدراسات الثقافية، المشروع القومي للترجمة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003.